



العاصفة مجلة

المجلد الرابع، ٢٠١٢ م

ISSN : 840-2277-9914



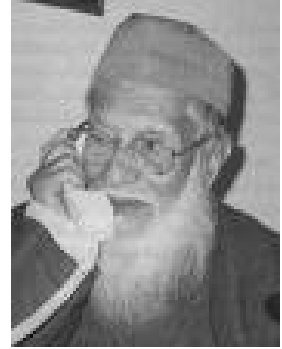
قسم العربية، كلية الجامعة
ثرونتبرم - ٦٩٥٠٣٤، كيرالا، الهند

السيرة النبوية) لأبي الحسن علي الندوي: دراسة تحليلية

د/ نسيم أختار الندوي

أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي

قد أنجبت الهند عدداً لا بأس به من الشخصيات التي لا يفتخر بها المسلمون الهنود فحسب، بل يعتز بها العالم العربي والإسلامي كله، فنجد منها، بدون شك، شخصية الأستاذ أبي الحسن علي الحسيني الندوي، الداعية، القائد، المؤرخ، الأديب، وكاتب السير والتراجم، وحسب ما قال الدكتور يوسف القرضاوي " الإمام الرباني الإسلامي القرآني المحمدي " الذي كان مولعاً منذ طفولته بفن التراجم والسير بفضل نشأته في بيئة إسلامية خاصة. أما الكتاب الذي أنا بصددده الآن، فهو من أهم كتب المؤلف، الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٩٧٧، وذاع صيته إلى حد أنه قد أصبح جزءاً لمقررات الدراسات الإسلامية في بعض البلدان العربية. إن خلفية المؤلف العلمية والثقافية، ولاسيما " اتصاله المباشر بمكتبة والده العالم الأديب والمؤرخ البحاثة" (١) عبد الحي الحسيني صاحب نزهة الخواطر، أتاحت له فرصة الاطلاع على أهم المصادر والمراجع حول السيرة النبوية، وما يتعلق بها من التراث التاريخي والحضاري والاجتماعي. وهي الخلفية التي ساعدته في تأليف هذا الكتاب " السيرة النبوية".



يتجلى من خلال مطالعة هذا الكتاب أن الشيخ الندوي قد حاول قدر المستطاع ألا يكون كأمثال المؤلفين الذين حينما يكتبون حول أي شخصية دينية يعتقدون بأن القارئ بعد قراءة كل ما كتبه سيقول " أمانا وصدقنا"، فهو يعتقد أن أي كتاب حول سيرة النبي لا بد أن يكون فيه مزيج العقل والعاطفة على حد السواء، فإنه، على حد تعبيره، "لا يكون فيه البحث العلمي والنقد التحليلي على حساب العاطفة والحب والإيمان، الذي لا بد منهما في تذوق السيرة والاستفادة منها وفهم قضاياها وأحكامها وحوادثها، فإنه إذا تجرد الكتاب من العاطفة والحب والإيمان، كان خشبياً مصنوعاً لآحياة فيه، وكذلك يجب ألا يكون العنصر العاطفي العقيدي على حساب المتطلبات العقلية السليمة التي نَمَّأها هذا العنصر بصورة خاصة، وعلى حساب المنطق السليم الذي لم يتجرد منه عصر من العصور، فيكون كتاباً عقيدة وتقليد فحسب، لا يطبق قراءته ولا يوسع ما جاء فيه إلا الأقوياء في الإيمان والراسخون في الإسلام.... الذين نشأوا في بيئة دينية خالصة لا شأن لها بالعالم الخارجي، وبالثقافة العصرية" (٢).

والميزة الأخرى لهذا الكتاب أن المؤلف يؤمن بأن لكل عصر لغة وأسلوباً في الكتابات، ومن الواجب أن يهتم مؤلف السيرة النبوية بذلك، فالشيخ الندوي لا يكتفي بسرد أحداث تتعلق بحياة النبي صلى الله عليه وسلم سرداً تاريخياً يتحدث عن زمن ومكان محدد ومحدود، بل يسعى إلى تقديم حلول لمشكلات فردية واجتماعية، مادية وروحية للقرن العشرين في ضوء السيرة النبوية. والواقع أن الاستنتاج من حادث واحد يتنوع، وذلك بسبب اختلاف مدى قدرة المؤلف على الدراسة

- ١ الشيخ محمد الرابع الحسيني الندوي في مقالته " ملامح أسلوب الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي " المنشورة في " المسحة الأدبية في كتابات الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي، جمع وترتيب: محمد واضح رشيد الحسيني الندوي، رابطة الأدب الإسلامي العالمية لكاناؤ (الهند)، ٢٠٠٤م، الصفحة: ٧
- ٢ أبو الحسن علي الحسيني الندوي، السيرة النبوية، مقدمة الطبعة الأولى، دار الشروق بجدة، عام ١٨٨٦، الصفحة ١١-١٢.

التحليلية، والنقدية، ومستوى ذكائه، وثقافته، وحبه وعلاقته الروحية والفكرية بالموضوع، وإلمامه بمناهج البحث العلمي والأدبي، فنجد أن الشيخ الندوي يعلق على حلف الفضول تعليقاً يبدو كأنه يخاطب به العصر الحديث، فيقول: "يرى المتتبع لأوضاع جزيرة العرب بصفة عامة، ووضع مكة المكرمة مركز الجزيرة الديني والثقافي والسياسي وواقعها، أن الباعث لأهل الضمانر الحية على إنشاء هذا الحلف لم يكن حادثة تتعلق بفرد واحد أو لبعض حقوق مهضومة لأفراد معدودين، بل كان الباعث القوي هو القلق من حالة الفوضى وعدم الثقة التي كانت تسود على مكة وما حولها، والشعور بالحاجة إلى الأمن والاستقرار- خصوصاً بعد حرب الفجار- واحترام الحقوق والكرامات، وحماية الغرباء، والوافدين إلى مكة من التجار والصناع"^(١). ونفس الأسلوب يبرز حينما يقوم بتصوير مجتمع المدينة المنورة تصويراً تبرهن فيه أوضاعها الطبيعية والاقتصادية والحضارية، والحالة الدينية الاجتماعية للمجتمع المدني^(٢).

ومثال آخر تتضح به كيفية استنتاجه من أي حادث حدث في حياة النبي صلى الله وسلم، فهو تحت حديثه عن معركة بدر، يتوقف على المقام الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم " اللهم أنجزني ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لاتعبد في الأرض"^(٣) يقول الشيخ الندوي " لقد شفع الرسول صلى الله عليه وسلم لهذه العصابة المؤمنة في هذه الساعة الحاسمة الدقيق، بالكلمة الوجيزة التي تجلت فيها الثقة والاضطراب والسكينة والافتقار جنباً لجنب، فكانت أدق تعريف بهذه الأمة وأدق تحديد لمركزها ومكانتها بين الأمم، وقيمتها وغناها في هذا العالم، والشعر الذي ترابط عليه وهو الدعوة إلى الله، وإخلاص الدين، والعبادة له، وقد أثبت الانتصار الرائع المعجز الذي أبطل كل تجربة، صدق هذه الكلمة ودقتها، وأنها كانت تصويراً صادقاً لهذه الأمة^(٤).

وكذلك نرى أن المؤلف أشار إلى وجود روح التسامح الديني في الإسلام مستدلاً مما وقع في غزوة خيبر، هو أنه "كان من بين المغنم التي غنمها المسلمون في غزوة خيبر صحائف متعددة من التوراة، فلما جاء اليهود يطلبونها أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتسليمها لهم". ثم نقل المؤلف، حسب طريقة تأليفه الخاصة، مقتبساً من كتاب (" تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص: ١٧٠)، للدكتور إسراييل ولفنسون، مؤرخ يهودي مشهور، كتعليق على هذه القصة، فهو يقول: "يدل هذا على ما كان لهذه الصحائف في نفس الرسول من المكانة العالية مما جعل اليهود يشيرون إلى النبي بالبئان، ويحفظون له هذه اليد حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة، ويذكرون بإزاء ذلك مافعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم، وفتحوها سنة ٧٠ الميلادي، إذ حرقوا الكتب المقدسة وداسوا بأرجلهم، وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حيث أحرقوا أيضاً صحف التوراة، هذا هو اليون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الإسلام"^(٥) فالمؤلف لإثبات دلالة يذكر الإحالات على الكتب التي ألفها المؤرخون المسيحيون، واليهود، والمستشرقون. وهذا المنهج موجود في كتابه من البداية إلى النهاية.

ومن أبرز ميزات هذا الكتاب أن البحث الخاص بالعصر الجاهلي يتناول "الجاهلية العالمية"^(٦) فقد ألقى المؤلف نظرة باحثة على الوضع الديني في القرن السادس الميلادي، وأوضاع البلاد والأمم آنذاك، كما تطرق إلى الإمبراطورية الرومانية الشرقية والإمبراطورية الإيرانية، وتحدث عن الحالة الدينية والخلقية والاجتماعية في الهند، وأوروبا بجانب

- ١ نفس المصدر، ص: ١١٣
- ٢ نفس المصدر، الصفحات: ١٧١-١٩٢
- ٣ صحيح مسلم، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر.
- ٤ الشيخ الندوي، السيرة النبوية، ص: ٢٢١-٢٢٢
- ٥ نفس المصدر، ص: ٣١٧.
- ٦ بلال عبد الحي الحسني الندوي، سيرة مفكر الإسلام، أبي الحسن علي الندوي، مجمع سيد أحمد الشهيد، دار عرفات، نكيه كلان، راي بريلي، بولاية أتراباديش، الهند، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ، ص: ٣٥٤

التركيز على الجزيرة العربية. من خصائص هذا الكتاب أن الشيخ أبا الحسن قد جعل واقعة ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم مرادفاً لتاريخ مبدأ الإسلام ورفيقه (١). ويبدو أن هذا الكتاب ليس كتاباً حول السيرة النبوية فحسب، بل هو كتاب الدعوة والإرشاد (٢)، ولم يحاول المؤلف أن يثبت فكرته وموقفه بالتأويلات الغريبة (٣).

ويتجلى جمال أسلوبه في حديثه بعنوان "حجّة الوداع"

"ولما تم ما أَرَادَهُ اللهُ، من تطهير نفوس الأمة، من شوائب الوثنية، وعادات الجاهلية، وإنارتها بنور الإيمان، وإشعار مجامرها بالحب والحنان، وتم ما أَرَادَهُ اللهُ، من تطهير بيته من الرجس والأوثان، وتاقت نفوس المسلمين بعد عهدهم عن حج البيت، وطقحت كأس الحب والحنان، حتى فاضت ودنت ساعة الفراق، وألجأت الضرورة إلى وداع الأمة، أذن الله لنبيه في الحج" (٤). وهو يستخرج من حجة الوداع قيمتها البلاغية والتربوية قائلاً: " كانت هذه الحجة تقوم مقام ألف خطبة وألف درس، وكانت مدرسة متنقلة ومسجداً سياراً، وثكنة جواله، يتعلم فيها الجاهل وينتبه الغافل، وينشط فيها الكسلان، ويقوى فيها الضعيف، وكانت سحابة رحمة تغشاهم في الحَلِّ والترحّال، وهي سحابة صُحْبَةِ النبي صلى الله عليه وسلم وعطفه وتربيته وإشرافه" (٥).

ومن المباحث المهمة لهذا الكتاب موضوع تعدد الزوجات، فقد تناول المؤلف هذه القضية بإيجاز، بل يمكن أن نقول إيجاز قريب من المساواة البلاغية، وهو ربما يعتقد أن إطالة الكلام لدى الإجابة على أسئلة المعترضين سيزول هدف مهم لقراءة سيرة الرسول الطيبة، وهو الغذاء الروحاني، ولكنه في نفس الوقت لا يترك منهج تأليفه، الذي يربط بين العقل والعاطفة. فهو لتحقيق غرض إقناع المعترضين، والمشككين في جانب، وإبقاء تأثير وإفادة الموضوع لمحبي رسول الله في جانب آخر قد ذكر عن كمال الرسول نشأة، وتربية، وعقافاً، ونزاهة، وعزوفاً عن كل مالا يليق به. وتحدث عن مصلحة وراء تعدد الزوجات، وميزات البيئة العربية، وأثبت أنه لايناسب قياس حياة النبي الزوجية بالمقاييس الغربية.

خلاصة القول:

السيرة النبوية للشيخ الندوي يمكن أن يجد فيه العالم الحائر حلاً للمشكلات العويصة التي شغلت الفكر الإنساني في زماننا هذا، شريطة أن يدرس سيرة النبي دراسة موضوعية، بعيدة عن العصبية والترتمت، والكراهية للإسلام، الناتجة عن العنصرية، أو سوء التفاهم.

- ١ الدكتور ظفر أحمد صديقي، دراسة للسيرة النبوية للشيخ الندوي، منشورة في كتاب البروفيسور محسن عثمانى الندوي بعنوان مطالعة مؤلفات مولانا سيد أبي الحسن علي الندوي (باللغة الأردية)، عرشي بليكيشنر إنديا، دلهي، ٢٠٠٢م، ص: ١٨٢.
- ٢ نفس المصدر، ص: ١٨٣.
- ٣ نفس المصدر، ص: ١٨٣.
- ٤ الشيخ الندوي، السيرة النبوية، الصفحة : ٣٨٥
- ٥ نفس المصدر، ص: ٣٨٥